المنيعي

بسمه المنيعي

٤٣٢٢٠١١٠١

تصل/ اتصال الثقافات

أ. بدرية العبيد

إنهم يمشون وأسلحتهم في جيوبهم

الساعة الآن الرابعة صباحًا وأنا متمددة على سريري الجديد في شقتي الجديدة المقدمة لي من قبل الشركة التي بدأت بالعمل لديها. تفوح من الفراش رائحة النظافة، لكن هنالك رائحة فظيعة تنبعث من الشقة ! لا أعرف من أين قادمة؟ بدأت بتفقد أنابيب المياه في كلٍ من الحمام والمطبخ لأكتشف أن هذي الرائحة قادمة من شقة جاري الذي يقطن في الطابق العلوي. الشقة بأكملها مظلمة وكئيبة بلا نوافذ ولا أشعة شمس أو أي شيء مبهج يجعلني أُعرض عن فكرة عدم المجيء إلى هنا للعمل كمدرسة لطالبات لا يستطعن التحدث بأي لغة أفهمها.

اسمي سالكوزي كيلي أم لصبي جميل في السابعة عشرة من عمره. براندون هو الشيء الوحيد الذي له معنى في هذا العالم البشع . نعم، بشع! عشت طوال عمري في خدمة بلدي، وطاعة ديني، والإحسان للآخرين، فأي إساءةٍ كنت فعلتها لأستحق ذلك؟ أنا أؤمن بالله وأؤمن بالقدر ولكن بعد وفاة ابني لا تلوموني؛ إذ بتُّ أكره هذا العالم وأراه بشع. توفيَ براندون في آذار الفائت. الآن وبالتحديد مر على وفاته ثمانية أشهر وسبعة أيام وثمانية عشر ساعة . منذ ذلك الحين وأنا أعيش في حزن وكآبة. في أعماقي أعلم أن براندون سوف يحزنه لوعلم بأنّي على هذا الحال المروع!

مرت الأيام وسئمت من حالي، "أريد التغيير" أريد التغيير" رددت هاتين الكلمتين في ذهني. فأنا بحاجة إلى مغامرة و تجربة أشياء جديدة. أظن المجازفة بمغامرة جديدة و محفوفة بالمخاطر هي ما أحتاج. درجة البكالوريوس في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية من كلية المدينة كانت تذكرتي لمغامرتي المنتظرة. بحثت عن وظائف للتدريس خارج البلاد ووجدت شركة واحدة تحتاج إلى مدرسي لغة إنجليزية لتدريس طلاب السنة التحضيرية في المملكة العربية السعودية وتحديدًا الرياض. وكانت هذه الوظيفة هي الوحيدة المتاحة تحت إشعارات قصيرة جدًا، على الفور أرسلت إليهم بريدا إلكترونيا مرفقٌ فيها سيرتي الذاتية. ذاك اليوم كان شديد الحرارة فدرجة الحرارة كانت فوق ٣٥ درجة. شعرت بألم في كل عظمة من جسدي و لم أستحم لعدة أيام. كان بيتي مليء بالفوضى، الغسيل القذر مبعثر في كل مكان، الغبار و بقايا الطعام على الأرض. كنت يائسة للغاية ووحيدة. لحسن الحظ ، لدي جميع المتطلبات التي طلبتها الشركة. في غضون بضعة أيام أجابت الشركة لطلبي و اخبروني بأنهم مهتمين في التعاقد معي كمدرسة بدوام كامل(من الواضح أنهم في حاجة ملحة إلى معلم). أوضحوا في الرسالة أنهم سوف يقومون بعمل مقابلة لي في مقهى بالقرب من وسط المدينة، كيب تاون.

قبل يومين من المقابلة التقيت باثنين من أصدقائي مارشا وويل في حفل عشاء وأخبرتهم عن هذه الفرصة و كيف أنها سوف تكون جيدة لصحتي و نفسيتي. وللمرة الأولى منذ فترة طويلة شعرت بالحماس و الشوق للعيش. شعرت بحماسهم لي، ولكن أول ما أخبرتهم بأن هذه المهمة في المملكة العربية السعودية صدموا بطريقة لم تكن إيجابية. كلمات مارشا كانت "سال هل أنتِ جادة؟! هل تعرفين ما هي المملكة العربية السعودية؟ " قلت لها: "لا، كل ما أعرفه هو أنها في الشرق الأوسط وربما بالقرب من مصر" (معرفتي فقيرة بالبلدان والثقافات) بينما كلمات ويل كانت: "هل تعرفين تنظيم القاعدة؟"، أجبته بشكل سريع "يا إلهي.. بالطبع.. أعرفهم.. بن لادن!" قلتها بصوت عالِ النبرة، قالت مارشا: "حسنا، عزيزتي، المملكة العربية السعودية هي موطن تنظيم القاعدة"، قلت: "أهاا! هذا يفسر تعابير الصدمة التي رأيتها عندما أخبرتكم عن فرصة العمل هناك"، تجنبتهم و ذهبت لأحضر شطيرة من البوفيه بعد أن تظاهرت بأنني لم أكن مهتمة بأن المكان الذي أخطط للعيش فيه لفترة من الزمن في المستقبل القريب هو موطن الإرهاب. مشيت نحوهم مرة أخرى و تمتمت "لا أعرف"، ثم قلت لهم سوف أذهب للمقابلة على أية حال. قالت مارشا: "لا زال هناك فرصة للتراجع عن قرارك". أنا عنيدة ! لطالما كنت و سوف أظل كذلك، لكن فكرة الذهاب

والعيش في موطن تنظيم القاعدة أفزعني. لم أرد أن يظهر علي الارتباك خلال العشاء فزيّفت بعضًا من الضحكات و الابتسامات طوال الوقت الذي قضيته في الحفلة. أخذت معطفي وعندما كنت على وشك المغادرة، ركضت مارشا نحوي، أمسكت بكتفي الأيسر وحدقت في عينّي قائلة في نغمة ساخرة: " إنهم يمشون وأسلحتهم في جيوبهم" ثم ابتعدت قليلًا وغيرت موضعها و قالت: " لا تقولي أني لم أحذرك!".

بعد أن عدت إلى المنزل قررت أن أقرأ بعض المعلومات عن السعودية، أعتقد أن أصدقائي قد بالغوا بشأن الوضع هناك. على الرغم من تحذيراتهم لي، لن أغيرَ رأيي بشأن الذهاب لكن حديثهم قد ترك صورة في رأسي أو انطباع عن الشعب السعودي. و أتى يوم المقابلة. ارتديت بذلتي السوداء مع وشاح خربزي اللون، ووضعت نظارتي، بدا مظهري رسمي كأي معلمة. بينما كنت أقود سيارتي إلى مكان المقابلة ظللت أفكر بما قالاه ويل و مارشا لي، توقعت الذي سوف يجري المقابلة أن يكون من الشرق الأوسط، وكنت على حدسي.. كانت بشرته داكنة و شعره أسود، وكانت لديه لكنة بريطانية، متحدث لثلاث لغات و ذو حسٍ فكاهي رائع. أحببته وأعتقد أنه جعلني أكثر حماسًا لهذه التجربة الشيقة والجديدة. وقعت على العقد و ما زالت متخوفة بداخلي، أخبرني بأن الرحلة في الأسبوع القادم يوم الأحد في الساعة ١١ صباحًا، وقدم لي بقية التفاصيل حول من سوف يصطحبني عند الوصول وما إلى ذلك.

هبطت الطائرة في مطار الملك خالد، الرياض. وأنا في قاعة الوصول تعجبت عندما رأيت جميع النساء يرتدين معاطف سوداء طويلة مخفين بذلك الشعر وكامل الجسم ما عدا اليدين والقدمين. تساءلت بداخلي هل يجب علي أن أرتدي هذا المعطف؟ من أين أحصل عليه؟ لما لم أبحث عنه قبل مجيئي إلى هنا؟ فتذكرت عندما قال لي أحمد ،رجل المقابلة، عن "العباءة" فقلت في نفسي "كيف لي أن أفوت هذه النقطة و أنسى إحضار معطف أسود طويل بشكل مبدئي !" و بينما كنت أتساءل بنفسي شعرت بكتمة وكآبة; لأن القاعة كانت ذات ألوان ترابية باهتة.

ما زلت مستلقية على السرير، هذا هو اليوم الرابع لي هنا في هذه المدينة الغريبة. أصبحت الساعة السابعة، يجب علي أن أستعد لتصطحبني الحافلة إلى العمل. ارتديت "العباءة" وخرجت من شقتي، وفي طريقي إلى العمل أدركت بأني مكتومة لحد الإختناق. أخاف بأن أتحدث لأي أحدٍ عن ما أشعر به أو اعتقده.. أخاف بأن يتم قتلي أو إرسالي إلى السجن. شعب مرعب! ظللت أكتم مشاعري وكل ما أفعله هو التبسم، محاولات زميلاتي في العمل للتواصل معي و الحديث باءت بالفشل فكل ما أفعله هو الإبتعاد وإشعارهم بعدم الترحيب. ربما لأنني كنت خائفة من أن يقوموا بالحكم علي و على جنسي و ديني فكنت أتجنبهم حتى أصبحت خارج الإطار تمامًا. شعرت بأنني كالخادم المملوك عند شعبٍ فاحش الثراء؛ ففي كل مرة كنت أحاول إلقاء المحاضرة أرى نظرات مخيفة من الطالبات تلجمني وتجعلني كالتمثال بلا حراك. لم أستطع التواصل معهم! حاولت بعدة طرق ولكن جميعها انتهت بفشل ذريع. كانت أصوات الفتيات عالية،وكانوا كثيري الضحك، ثرثارات، لم أعهد هذا النوع من الاستهتار من قبل. يملكن أجهزة جوال غالية الثمن و كلن لديه أكثر من جهاز، هل علي أن أذكر أيضًا أن حقيبة كل واحدة منهن تساوي مرتبي الشهري أو أكثر! حقائب الماركات العالمية بيد كل واحدة منهن! ليس الجميع بالطبع، ولكن الأغلبية العظمى. قررت بأن آخذ خمس دقائق استراحة، جلست على كرسي عند باب القاعة أتأمل بالممر وكل المارين. مر من أمامي فتاتان يتحدثن بحماس وأشكالهم بدت لطيفة. سمعتهم يتحدثن الإنجليزية فحدقت بهم و شعرت بأنهم علموا بأني أحدق بهم.. تظاهرا بعدم الانتباه وأكملوا حديثهم. "في بلدي الجميع حر بأن يمارس أي نوع من العبادة" قلتها بصوت عالٍ موجهة حديثي إلى الفتاتين. لم أستطع أن أكتم مشاعري و لا أعرف لما قلت هذا التعليق بالذات! ربما لأني متدينة و أريد أن أمارس عبادتي بشكل طبيعي من غير إطلاق أحكام. كنت أشعر بالحرارة و التعرق. توجها نحوي "عذرًا هل كنت تخاطبيننا؟" لم تكن اجابتي بنعم أو لا، أكملت "في بلدي الجميع حر بأن يمارس أي نوع من العبادة" أجابتا معًا "وهنا أيضا!". ارتحت لهم، فأخبرتهم قصتي و سبب مجيئي ومن جهتهما أخبراني عن السعودية وعن ثقافتهم وكم بودهم أن يزوروا بلادي.

المنيعي

صدمتي وفزعي من هذه المدينة و فكرتي عنها بدأت بالتلاشي شيئًا فشيء بعد حديثي مع هاتين الفتاتين اللاتي لم أعرف اسميهما بعد و قررت بأن أجد حلًا لأتمكن من التأقلم و التواصل فعليًا مع الطالبات والزميلات هنا، وعرفت بأن كل ما كنت احتاجه هو توضيح وحديث من أهل المدينة نفسها لكي أستطع فهم الوضع هنا وثقافتهم بشكل عام. ندمت عند اعتقادي بأن ما قرأت في المواقع الإلكترونية وتصديقي بما سمعته من أصدقائي عن السعودية. يجب على الشخص أن لا يحكم على أيٍ كان دون التجربة بنفسه وأن لا يعمم صورة معينة على شعب بأكمله بسبب حديث شخصٍ آخر أو اعتقادات إحدى جماعة. سوف أقضي سنتي العقد أستأمن البلد مثلما استأمنتني منذ البداية عندما أحضروني لأدرس بناتهم.